

الدلالة الفنيّة في حضور صورة المرأة الأوروبيّة في الرواية السورية

أ. بلليطة نصيرة

جامعة الجزائر 2

ملخص:

تحاول هذه الدّراسة التي اتّخذت من الرواية السورية موضوعاً للبحث ، الوقوف على ملامح صورة المرأة الأوروبيّة من خلال ما قدّمه الروائيون السوريون في نتاجهم الروائي .

و لعلّ الرواية السورية الحديثة لعبت دوراً في إظهارها في صورة مغيرة ، حيث أصبحت المرأة الأوروبيّة امرأة إنسانة وليس مجرد جسد ، بل أصبحت الأم ، الزّوجة ، الابنة...

الكلمات المفتاحية: الرواية السورية ، المرأة الأوروبيّة ، الذات و الآخر.

Résumé:

Ce travail essaye de prendre la roman syrienne comme un objet de recherche concernant l'image de la femme européenne par des écrivains syrienne.

Un exemple de ces romans moderne, qui a été joué un rôle très important pour montrer un autre image ,tel que le femme est devenu humain , et non pas qu'un esclave ,elle devenu une mère ,fille...

Les mots clés:La roman syrienne, la femme européenne, soi, autre.

إنّ اتّصالنا بالآخر أتاح لنا فرصة للاكتشاف و المقارنة بين عالمين متناقضين، وعلى هذا الأساس اتّخذ المفكّرون العرب ثلاثة مواقف حيال هذا الاتّصال:

موقف الإعجاب ،

موقف التماهي ،

موقف الرفض و الممانعة.

لقد ارتكزت المواجهة الحضارية بين الذات العربية و الآخر الغربي على طرائق متعدّدة ، تعكس في آرائها راهنها الذي تأرجح بين الاستعمار والاستقلال. تعدّ الرواية السورية واحدة من الروايات العربية التي اهتمّ روائيها بهذا اللقاء ، وشغفوا بمعرفة الآخر ، فروّادها هم على الأغلب رجال احتكوا بالعالم الغربي لسبب أو لآخر¹.

لقد تعاملت الرواية السورية منذ تجاربها المبكرة مرورا بكلّ التحوّلات و الثورات التي مرّت بها حتّى الآن مع صورة المرأة الأوروبيّة ، التي صارت تيمة محورية في الخطاب الروائي السوري، و اشتملت على أطروحات و رؤى ، حتّى باتت أشبه بموضة لدى أكثر الروائيين السوريين ، إلّا أنّها جاءت على مستوى عال من الأمانة في النّقل و الإبداع في الإنتاج ، لأنّهم طرحوا القضية بوعي فنيّ و فكري متميّز بعيدا عن الأحكام المسبقة و الارتجالية النّابعة من العداء ، الذي يحمله العرب للغرب هذا من جهة، و من جهة أخرى فمعظم الروائيين الأوائل كانوا طلاب علم في أوروبا ، ممّن احتكوا مباشرة بالثقافة الغربيّة. تجلّيات صورة المرأة الأوروبيّة

في الرواية السورية من سنة 1939م – 2003م:

تعدّ دراسة الآخر ممثلة بصورة المرأة الأوروبيّة محاولة للبحث عن عالمها بموجوداته ، و تناقضاته . و قد تعرّض الأدباء العرب السوريون لهذه المسألة، وتشهد على ذلك إبداعاتهم التي عكست هذا الصّراع بكلّ أبعاده، إلّا أنّ زوايا الرؤية لديهم كانت مختلفة. فلم تخرج الرواية السورية في تمثلاتها لصورة المرأة الأوروبيّة في إطار قضية علاقة الشرق بالغرب عن الطابع الجنساني ، إذ عكست هذه العلاقة الحضاريّة من منظور التماهي بين الثقافة و الذكورة ، و عبر علاقة الذات مع الآخر ، و قد جسّد هذه العلاقة عدد من الروائيين.

تعتبر رواية "نهم" لـ "شكيب الجابري" من بواكير الروايات السورية التي تناولت صورة المرأة الأوروبيّة ، التي وصفها "حسام الخطيب" بأنّها «رواية غربية كُتبت بالعربية»²؛ لكون أحداثها تدور في جوّ غربي و معظم شخصياتها غربية.

و هي الرؤية ذاتها التي يعيدها في رواية "وداعا يا أفاميا" ، و تتناول فترة الانتداب الفرنسي ، إذ يبقى فيها الكاتب معجبا بالغرب و حضارته ، ممّا جعل شخوص الرواية الغربيين ، يبدون طيّبين و مستقيمين ، باستثناء سيّدة فرنسية واحدة³، و روايته "قدر يلهو" ، من الروايات التي تمثّل لقاء الشرق بالغرب ، من خلال شخصية "علاء الرّجل

الشرقي و الطالب السوري الذي يحضر دكتوراه في الطب في جامعة برلين ، و شخصية "إلزا" المرأة الأوروبية ، التي تقع في حبّ علاء و تقيم معه علاقة ، كانت نتيجتها طفل سميّ "محمّد علي" ، مات بمرض السلّ ، بسبب فقرها وعدم قدرتها على دفع مصاريف العلاج. تعتبر رواية "قوس قزح" رواية رومانسية الطابع ، تنضمّ إلى الروايات التي كتبت في مرحلة الانهار بالغرب.

يأتي الروائي "حنّا مينة" -بعد "شكيب الجابري" - في مقدّمة الروائيين السوريين الذين رصدوا صورة المرأة الأوروبية بعمق ، حتّى بدا وكأنّه الروائي الوحيد في هذا البلد الذي استأثر بهذا الموضوع. و قد حلّل هذه الصورة في عدّة روايات ، منها: رواية "الرّبيع و الخريف" ، " حمامة زرقاء في السّحب" ، "المغامرة الأخيرة" ، "حدث في بيتاخو" ، "فوق الجبل و تحت الثلج"...

تعدّ رواية "الرّبيع و الخريف" الصادرة عام 1984م ، واحدة من الروايات التي يقابل فيها بين الشرق المتخلّف الضائع و الغرب الاشتراكي المتقدّم ، من خلال تصوير تجربة المناضل "كرم" الذي دُفع إلى خارج البلاد في عهد الوحدة السورية المصرية إلى الصين و المجر⁴ ، فهو «يحمل تشوّقه للحريّة و المرأة و الخمر عن أجواء القمع في بلاده ، فهي رحلة امتحان الموقف في مواجهة الذات و قد تعرّضت لتحديات الحاجات المتحققة في مجتمع اشتراكي»⁵. و قد تجسّدت المرأة الأوروبية في شخصيتين: الأولى شخصية الطالبة الجامعية و الشاعرة المبتدئة "بيروشكا" التي تقع في غرام "كرم" الذي لم يستجب لعواطفها ، و الثانية هي شخصية "إيرجكا" المرأة الفنّانة التي يعجب بها "كرم".

يضمّ الكاتب تجربة عاطفية رومانسية بين الراوي (الخريف) و بيروشكا (الرّبيع). ولم تنته هذه العلاقة الرومانسية إلّا بعد عودة "كرم" إلى بلده بعد الحرب الإسرائيلية ، و بعد وصوله إلى دمشق ، سيزجّ به المخبرون في السجن عقاباً له على نضاله السياسي ، لأنّه كان شيوعياً سورياً منفياً في الصين ثمّ المجر.

لقد اكتشف بطل هذه الرواية في بودابست - باريس الصّغيرة - المجتمع الاشتراكي الأوروبي اكتشاف الصديق من خلال المقهى الصّغير (م-ك) ، و من خلال المرأة المجرية ، مفتاح المجتمع في هذا البلد و المتحف الصيني في البيت ، توصّل إلى أنّ المجتمع المجري «مجتمع مفتوح ، و التعصّب المذهبي لا أثر له»⁶.

انه ههنا ينقد الذات و يمجّد الغرب ، الذي عادة ما يلجأ إليه العربي من نسيان اضطهاده و معاناته في بلاده.

لقد طرحت هذه الرواية وعي النحن والآخر ، من خلال صورة المرأة الأوروبية ، حيث باتت نقطة اللقاء تقوم في مركز الآخر ، لا في مركز النحن ، حيث لم يعد الآخر هو الغرب الاستعماري.

ان رواية "الربيع و الخريف" تؤكد بأن نوع العلاقة مع الغرب يعود إلى مكونات الشخصية الشرقية للبطل ، فكلما كان ملتزماً سويًا ، كان أكثر ثقة بنفسه و أقوى مناعة ضدّ التيارات التي تسحب منه دينه و أخلاقه و مبادئه.

و رواية "مأساة ديمتريو" الصادرة عام 1985م واحدة من الروايات التي تحدّث فيها "حنّا مينة" عن المرأة الأوروبية ، من خلال شخصية الراقصّة اليونانية "أنستاسيا" التي أعجب بها "ديمتريو" ، و تزوّجها بعدما ساعدته على فرض احترام قدسية الفنّ ، فكانت شريكته في كفاحه.

تعتبر رواية "حمامة زرقاء في السحب" عام 1988م ، قطعة سرديّة تجسّد بقوة لقاء الشرق (كرم) بالغرب (ليديا) ، من خلال رؤية انبهارية استغرابيّة و انتقاديّة ، تهدف إلى المقابلة بين الإنسان العربي و الآخر الغربي (الإنجليزي) ، فالأول يهدّد الفقر و الدّاء ، بينما يعيش الثاني في سعادة و غنى . حيث ترصد التّفاوت الملحوظ بين عالم التخلّف و عالم التقدّم ، و المقارنة بين الانحطاط الحضاري و الرقي المدني. فالرواية تكشف عن الصّراع بين الغرب المادّي ، المتفوّق علميًا ، و الشرق المتخلّف المعتمد على العادات و التّقاليد التي كرست تخلفه.

بعد سنوات من رواية "الربيع و الخريف" يعود "حنّا مينة" إلى حياته في المنفى الصيني ، فيكتب الجزء الأوّل من الثلاثية السيرية "حدث في بيتاخو" عام 1995م ، والتي كان فيها للمرأة الأوروبيّة حضور قويّ ، يبنى عن وعي الكاتب بدورها و أهميّتها داخل العمل الروائي ، ليس على المستوى الفنّي فحسب ، إنّما يتعدّى ذلك إلى طرح قضايا اجتماعية و أخلاقية في المجتمع الغربي، أمّا الجزء الثاني فعنوانه بـ "عروس الموجة السوداء" عام 1996م ، و الجزء الثالث "المغامرة الأخيرة" عام 1997م ، و فيها يكون الراوي "زيد الشجري" كاتبًا عازبًا سوريا منفيًا إلى مصيف بيتاخو الصيني ، حيث يعمل على مراجعة الترجمات الصينية إلى العربيّة ، و يقتني التحف ، و لديه من المال ما ينفق ببذخ على الشراب و المطاعم و البارات ، كما يسرد لنا مغامراته مع النساء.

الرواية بهذا الشكل تصوير لإنسان عربي يعيش مأساة السّيطرة الاستعماريّة كإنسان عربي ، وكشيوعي ملاحق ، يعيش حالة اغتراب وجد لها متنفسًا في بيتاخو ، من خلال

نسجه لعلاقات عديدة مع نساء كثرات ، ليروي تعطّشه للجنس ، و يتحرّر من رغبته المكبوتة (مارلين ، بورجرون ، مادلين ، نيلسون...) ، غير أنّ أبرزهمن حضوراً في حياته كانت "مارلين" و "بورجرون" ، و توظيفه للمرأة الأوروبيّة بهذا الشكل الملفت للانتباه يدلّ على التأثير الطاغى الذي أحدثته أوروبا في عقول المثقفين العرب.

و تحدّث في رواية "المرأة ذات الثوب الأسود" عن المجتمعات الغربيّة (الفرنسية والإنجليزية) ، و ما تعانيه من آفات و مشكلات اجتماعية مثل الشذوذ الجنسي ، من خلال شخصيتي "مارغريت" الفرنسية و "سميث" الإنجليزية.

تجسّدت المرأة الأوروبيّة في رواية "الرجل الذي يكره نفسه" الصادرة عام 1998م ، في شخصيتين: الأولى شخصية "إيلين" الزوجة المقهورة و المظلومة من طرف زوجها ، و الثانية هي شخصية "إيزابيل" الزوجة الخائنة لزوجها. فالرواية لم تكشف عن الصّراع بين الشرق و الغرب ، و إنّما كشفت عن سبب انهيار العالم الاشتراكي في الاتّحاد السوفياتي و صموده في الصين. إنّ المرأة الأوروبيّة في هذه الروايات لم تكن هدفاً للثأر و الانتقام من الاستعمار.

ان المتنبّع لروايات "حنّا مينة" هذه يجد أنّ الروائي في تصويره للغرب ، سيكتشف انه اعتمد بشكل كبير على تجربته الذاتية مع بعض التّعديلات الفكرية و اللّمسات الفنيّة. و لم تخرج الرواية السورية عن هذا الرافد ، و في هذا الصدد يقول "إلياس خوري" : «على أنّ الذين كتبوا حول المسألة ، إنّما انطلقوا من تجربة ذاتية ، و هذا قد يكون صحيحاً على مستوى الواقع ، لكن التجربة الذاتية لا تكتسب أهميّتها إلّا من خلال القدرة على تعميمها»⁷.

ان روايات "حنّا مينة" التي تحكي مرحلة الغربة «تتضمّن رؤية سياسية عميقة ، استشعر الأخطار المحيطة بالعالم الاشتراكي»⁸.

و تعتبر روايتا "عبد السلام العجيلي" "على رصيف العذراء السوداء" عام 1960م و رواية "أجملهنّ" عام 2001م ، من أهمّ الروايات التي استحضرت موضوع الغرب من خلال التّركيز على المرأة الأوروبيّة.

الرواية الأولى تدور أحداثها في شوارع باريس بين مقاهي و حانات "سان ميشيل" و "مونبارناس" و "المونمارتروسان جرمان" و "الحي اللاتيني" ، مع ذكريات البطل "عبّاس" عندما سافر بصحبة والده إلى بغداد و طقوس تلك المرحلة التي تربك عقله في السّؤال

عمّا إذا كان (الله محبّة) أم كان (الله معرفة) في حوار مع البطلة "ماريا لينا" السويدية المتديّنة حدّ تصوّف.

أما الرواية الثانية فتدور أحداثها في "فيننا" ، من خلال شخصية شاب سوري يدعى "سعيد" يقوم بزيارة سياحية لهذا البلد لبضعة أيّام ، ثمّ يضطرّ إلى تمديد ما بيومين ، بسبب وقوعه في حبّ فتاة نمساوية تدعى "سوزان" ، فيطلب منها الزّواج ، لكنّا ترفض. والجديد في الرواية أنّ العربي فيها لم يبرز تفوّقه عن طريق قدرته الجنسية ، فعلى عكس ذلك فقد تعلّم الحبّ على يد المرأة الأوروبيّة.

في هذه الرواية صراع اجتماعي وأخلاقي وحضاري ، وهذا ما تعبّر عنه "سوزان" بعد أن رفضت الزّواج من "سعيد" ، وذلك بسبب القيود الاجتماعيّة والفكريّة والعقائديّة التي تطرحها ثنائية الشرق والغرب.

لقد جسّد "عبد السلام العجيلي" في هاتين الروايتين إذن استحالة الّلقاء بين الشرق الروحاني والغرب المادي ، فهما لا يلتقيان إلّا ليفترقا ، فالحكم هنا على ثقافة الغرب وقيمه كان فقط من خلال قيم الشرق ليسود المطلق ويستعصي الحلّ.

وقد صوّرت "كوليت خوري" في روايتها "و مرّ صيف" الصادرة عام 1975م ، عمق أزمة المثقف العربي الذي يهاجر إلى الغرب ، وعلى الرّغم من إدراك شخوص الرواية لتخلّف مجتمعيها ، والذي يدفعها للهرب منه إلى الغرب الحضاري ، إلّا أنّها لا تقوى على التّعايش معه والاندماج فيه ، فتعود إلى وطنها الأصلي ، لكنّها عندما تعود لا تجد في نفسها القدرة الخلاقة أو الشجاعة لتغيير مجتمعيها أو حتّى تحديثه ، فتتوارى أو تتراجع لتظلّ الأزمة عالقة.

إنّ هذه الرواية تستحضر المرأة الأوروبيّة من خلال علاقة "يوسف" بـ "جين" ، الفتاة الأوروبيّة التي ملّت الجنس ، و راحت تبحث عن الحبّ لدى الشرق. فالكاتبة أرادت أن تجسّد فكرة معيّنة متمثّلة في «حنين مادّيّة الغرب إلى روحانية الشرق»⁹.

وتعدّ روايتا "غادة السّمّان" "ليلة المليار" و"سهرة تنكريّة للموتى" (موزاييك الجنون البيروتي) الصادرة عام 2003م ، من أهمّ الروايات التي تناولت تيمة المرأة الأوروبيّة من خلال الصّراع بين الشرق والغرب.

تقف رواية "ليلة المليار" على «مأساة العرب في فضاء الغرب»¹⁰ ، فهي تتميّز عن كلّ الروايات العربيّة الأخرى «بالمضمون المحتدم بصراعات الذات المحمّلة بمأساة الوطن و

جروح الذاكرة و التّاريخ ، و المدفوعة بهاجس الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982م¹¹.

و إذا كانت بعض نماذج الرواية الحضارية تركّز على تشخيص رحلة الذات من الجنوب إلى الشمال /الشرق إلى الغرب ، فإنّ رواية "سهرة تنكريّة للموتى(موزاييك الجنون البيروتي)" – الجزء الأخير من رباعية بيروت ، التي صدر منها "كوايبس بيروت"، "بيروت 75"، "ليلة المليار" – نعايش فيها « هموم "الأنا" في علاقتها الإيجابية مع الآخر الغربي ، الذي يأتي إلى بيروت زائرا لا غازيا»¹²، كما أنّها تقلب المسار السّردي ، و تركّز على الرحلة من الشمال إلى الجنوب /الغرب إلى الشرق ، كما أنّها لا توقف نفسها على شخصية المثقف ، و هي الميزة التي ميّزتها عن باقي الروايات التي اتّخذت من الصّراع الحضاري موضوعا لها. فالآخر في هذه الرواية جاء إلى الوطن العربي ، و أصبحت العلاقة به تُتناول في موطن الأنا.

تعرّفنا الرواية على المجتمع الاستهلاكي ، من خلال شخصية "ماري روز" التي تبحث عن جوّ الحرّيّة في الحبّ و الفنّ و السّفر ، و هي امرأة فرنسية تأتي مع صديقتها في زيارة سياحية إلى لبنان.

و رواية "موزاييك دمشق 39" في جزئها الأوّل لـ "فواز حدّاد" الصادرة عام 1991م من الروايات التي حصرت اللّقاء بين الشرق و الغرب في إطار علاقة تجنيس ، ذكورة و أنوثة ، الذكورة كان بطلها "يوسف" الذي يسافر إلى باريس لدراسة الحقوق في جامعاتها. أمّا الأنوثة فكانت تمثّلها "ماري تيريز" ، التي تعجب بـ "يوسف" و تصبح دليله إلى عالم باريس.

و المميّز في هذه الرواية أنّ "يوسف" رغم كلّ محاولات الإغراء التي تمارسها "ماري تيريز" ، يعود إلى وطنه ليتابع نضاله الوطني ضدّ الاستعمار الفرنسي. و هي تأكيد على أنّ "يوسف" لم يفقد هويته الذاتية ، و بقي متمسّكا بماضيه و ثقافته و تراثه ، فاستحالة التلاحم بين "يوسف" و "ماري تيريز" هي تأكيد على استحالة تحقيق التلاحم بين الشرق و الغرب.

و رواية "مرايا النّار" للكاتب "حيدر حيدر" الصادرة عام 1992م من الروايات التي لا نستطيع أن نقول عنها بأنّها رواية الصّراع الحضاري بين الشرق و الغرب، فورد الغرب فيها كان قليلا ، تمثّل في عجوز إسبانية فقط.

يروى الكاتب فيها حكايتين منفصلتين لرجل و امرأة تجمعهما الظروف في قرية نائية على شاطئ الأطلسي ، فتنشأ بينهما قصة حبٍ ، و تقف حكاية كلٍ منهما عائقاً أمام تفتح ذلك الحبِّ ، فيمضي الغريب متابعاً رحلته ، و تواصل المرأة انتظارها مع ابنتها و زوجها العاجز.

و رواية "قصر المطر" لـ "ممدوح عزّام" الصادرة عام 1998م، هي من الروايات التي سيكون اللقاء فيها بين الحضارة الغربيّة ممثّلة بفرنسا الغازية و السوريون على وجه الأرض السورية ، فتنشأ العلاقة بين أنوثة الغرب ممثّلة في زوجة الضّابط "موريل" ، و ذكورة العرب ممثّلة في شخصية "شامل الفضل" خارج إطار المكان الغربي (الهناك) ، و لذلك يغيب وجه الحضارة الثقافي و عالمها الحافل بالملذّات والأضواء و الفنّ و المعرفة ، ليظهر وجه القوّة العسكريّة الظّالمة.

إنّ إقامة "شامل الفضل" علاقة مع زوجة الضّابط يحمل حسب "مفيد نجم" «دلالات الانتقام، و الانتصار على الآخر، رغم ما يتمتّع به الآخر الفرنسي من قوّة»¹³.

و تجسّد لنا رواية "الظهر العاري" لـ "هنريت عبود" الصادرة عام 1998م ، علاقة حبٍ من طرف واحد ، من خلال التّقابل بين شخصية "أدهم مالك" الروحانيّة وشخصية "كلير" الماديّة ، فقد جاء "أدهم" من "معرة النعمان" إلى "بولفار سان جرمان" في باريس ، بحثاً عن مغامرة أو عن توهج ظهر عار يفتنه، و قد قطع تذكرة الإياب إلى دياره و راح يسأل نفسه ماذا لو بقيت في باريس ، و ماذا سيحلّ بمكتبي وبالدعوى التي كلّفت بها ، و قد شارفت العطلة القضائية على الانتهاء . لكنّه لم يفكّر إلّا في المغامرة التي أتى من أجلها ، و فعلاً حقّق ما يريد ، إذ أقام علاقة مع "كلير" التي بهرها برجولته فأغرم بها ، أمّا هي فاعتبرته مصدر رزق كبير ، لأنّه كان يدفع إيجار البيت التي كانت تقيم فيه ، و نفقاته و سهراتها في المطاعم الفخمة كلّ مساء.

و لما نفذت نقوده تخلّت عنه و رحلت. هكذا انتهت الرواية ، رواية كانت لغة الفراش بين البطلين هي اللّغة السّائدة فيها، و ثقافة السياحة هي الثقافة المشتركة ، فـ "أدهم" لا يجيد إلّا لغة الفحولة و "كلير" لا تجيد إلّا لغة الحرّيّة و الانطلاق. فقد وظّفت لنا "هنريت عبود" المرأة الأوروبيّة بهذه الصورة لتكشف لنا جشع أوروبا و طمعها.

و رواية "هيفاء بيطار" "امرأة من طابقيّن" الصادرة عام 1999م ، ليست من الروايات التي شغلها الآخر الأوروبي كثيراً، لذلك كان وروده ممثّلاً بالمرأة الأوروبيّة قليلاً، و لكن هناك نموذجين جاء ذكرهما على لسان الشخصيات الرّئيسة في الرواية، و هما "إيزابيل"

و الفتاة البولونية، وهما الأكثر حضوراً، ومن خلالهما تبين لنا بعض ملامح المرأة الأوروبية.

وتعتبر رواية "أعدائي" الصادرة عام 2000م للروائي "ممدوح عدوان" من الروايات العربية التي جعلت من تاريخ الدولة العثمانية والاستعمار الحديث مضمونا لها ، مستعرضة صورا للحياة اليومية التي يحياها المجتمع السوري في ظل هذه الحروب ، من خلال صياغة الغرب و الشرق معا كقطبين متنافرين.

و تمثل رواية "الطريق إلى الشمس" في جزئها الثالث لـ "عبد الكريم ناصيف" الصادرة عام 2000م إحدى الروايات التي تجسد علاقة العرب بالغرب من خلال العديد من الشخصيات الأوروبية النسوية .

لقد قصد "الأخضر" الغرب ليتعلم ، و هناك عاش صدمة حضارية بسبب المرأة الأوروبية، التي كانت أكثر حضوراً و تأثيراً في حياته بدءاً من "جانيت" التي ساهمت في بناء شخصيته ، حيث وقفت إلى جانبه و رافقته في معظم خطواته الدراسية ، وصولاً إلى "بريجيت" التي انجذبت إليه قصد إشباع رغبات جسدها ، و لم يكن همها سوى المتعة الآنية ، ثم انسحبت بعد ما تعلّق بها.

الرواية بهذا الأسلوب تصوير للتصادم الحضاري بين حضارة شرقية قوامها القيم الروحية، وحضارة غربية أساسها المادة و التفوق العلمي و التقني.

و يعتبر الجزآن : الثاني و الثالث من ثلاثية "خيري الذهبي" "فيّاض" و "الدوران في المكان أو هشام" الصادرتين عام 2003م من النصوص السردية التي جسدت بقوة لقاء الشرق بالغرب، من خلال البطل الشرقي و علاقته بالمرأة الأوروبية ، و ما يميّز هذين الجزأين أنّ شخصياتهما الأنثوية الأوروبية هي شخصيات مثقفة.

أمّا الجزء الموسوم بـ "فيّاض" فيحكي قصة "فيّاض" راعي الغنم ، الذي يتبنّاه الضابط الفرنسي "روجيه" و زوجته "ماتيلد" الباحثين في التاريخ ، لأنّهما يعانيان من العقم ، ثمّ يعملان على تعليمه و تثقيفه الثقافة الغربية ، لكي يذوب في محيطهما فينشأ نشأة فرنسية ، و يفقد صلته بماضيه و ثقافته العربية.

ثمّ يسافر "فيّاض" إلى باريس للدراسة في الجامعة ، و يضطرّ في إحدى الحفلات التي تقيمها الجامعة إلى تأليف قصص و حكايات خيالية مثرة عن عالم الشرق ، لأنّه باختصار لا يعرف وطنه ، و هو ما يدفع الطالبة "إيفون" الأرستقراطية إلى التعلّق به.

لكن "فيّاض" عندما يدرك حقيقة الدور الذي يقوم به الاستعمار في بلاده، ينقلب إلى نائر وطني، همّه استقلال بلاده و نيل حريّتها. ممّا يشكّل صدمة في نفسية "روجيه" ، فهذه الرواية شأنها شأن الكثير من الروايات اللّقاء فيها بين الشرق والغرب قائم على الاستحالة.

ما يهّمنا هنا هو صورة المرأة الأوروبية التي اتّخذت صوراً متعدّدة الأبعاد ، طغت فيها «لغة الجنس من كلّ جوانبه»¹⁴ ، فالصورة التي يقدّمها "خيري الذهبي" للغربي «سواء كان رجلاً أم امرأة ، هي صورة منحرفة ، و غير دقيقة ، ترتكز إلى العداء التاريخي ، والاختلاف الحضاري ، و سوء التفاهم الذي يقوّل الآخر ، و يحرمه من أبعاده الإنسانيّة الحقيقيّة»¹⁵ .

يأتي الجزء المعنون بـ "الدوران في المكان أو هشام" ، ليتناول شخصية "هشام" الممثّل للثقافة الشرقيّة ، الذي يسافر إلى ألمانيا و هناك يتعرّف على فتاة ألمانية تدعى "أولغا" ، و هي محلّلة نفسية ، فيحاول أن يقطع صلته بعالمه القديم و ماضيه الجريح ، الذي لم ينل منه إلّا الاستبداد و القمع السياسي و الضعف و السجن و أزمة (أنا مره) ، فيقوم بتمزيق جواز سفره ، و بالتّالي هويته ؛ لكي يهيء نفسه للاندماج في حياة المجتمع الغربي و ثقافته ، و التماهي معه في رؤيته إلى عالم الشرق. و تتخذ علاقته مع "أولغا" شكلاً آخرًا مختلفاً عمّا سبق من الروايات ، فهو يتمسّك بها و يريد منها أن تكون الأم و الأخت و الحبيبة و كلّ شيء.

فـ "هشام" ببيعه قصصاً عن الشرق استطاع أن يحصل على اعتراف الغرب به ، اعتراف تعزّز أكثر عندما نجحت "أولغا" في إعادة إحساسه برجولته ، و تشكيل معالم شخصيته ، التي يتزوّجها ، و ينجب منها بنتاً تنتمي إلى مجموعات حليقي الرؤوس المتطرّفة ، الأمر الذي يثير غضبه ، فيصفعها في إحدى المرات ، و تسقط ميّته على حافة أرضية الباب ، فلا يكون منه إلّا العودة إلى بلده ، و البحث عن كنوز أجداده المخبّأة في قبو البيت المهذّب بالهدم. فموت الفتاة يدلّ على استحالة اللّقاء بين الثقافتين الشرقيّة و الغربيّة.

لقد ضاع "هشام" في عالم الغرب ، ففحولته لم تستطع أن تثبت فاعليته ، لأنّه قطع كلّ جذوره بماضيه الحضاري.

الخاتمة:

لعلّ ما يمكن استخلاصه في الأخير هو تثبيت جملة من النتائج ، يمكن توضيحها في النقاط الآتية:

- جاءت المرأة الأوروبية في الرواية السورية حمّالة لأوجه متعدّدة و مختلفة، فهناك المرأة المثقفة، و المرأة الغاوية، العابثة، و الرّوجة و الأم و البنت...
- قد نعثر في الرواية السورية على صور إيجابية و في أخرى سلبية.
- حاول بعض الكتّاب تجاوز الصورة النمطية للمرأة الأوروبية (لعوب ، خائنة...) ، و تصويرها كامرأة طيّبة ، مخلصّة ، ناجحة.
- إنّ الرواية السورية حاولت نقل صورة المرأة الأوروبية ، و ركّزت على جانب الصّراع الحضاري.
- تعاطف الروائي "حنّا مينة" مع المرأة الأوروبية بتقدير و محبة ، فالحضارة في نظره لا تستمرّ إلّا بتلاقح المحليّ مع الآخر الغربي ، و النماء و العطاء لا يتّيم إلّا بالانفتاح على الحضارة الغربيّة.

الاحالات والهوامش :

- 1_ ينظر ، إليزابيث فوتنيه : الإبداع الروائي المعاصر في سورية من 1976م إلى الآن ، تر : ملكة أبيض . منشورات وزارة الثقافة ، سوريا (دمشق) ، ص 9.
- 2_ حسام الخطيب : سبل المؤثرات الأجنبية و أشكالها في القصّة السورية (دراسة تطبيقية في الأدب المقارن). المكتب العربي ، دمشق (سوريا) ، 1980م ، ص 46.
- 3_ ينظر ، سيّد حامد النّسّاج : بانوراما الرواية العربيّة الحديثة. ط2، مكتبة غريب ، القاهرة (مصر) ، ص 117.
- 4_ ينظر ، نبيل سليمان: الرواية العربيّة رسوم وقراءات. ط1، مركز الحضارة العربيّة، يناير 1999م، ص 27.
- 5_ عبد الرزّاق عيد: في سوسيولوجيا النّصّ الروائي. ط1 ، الأهالي للطباعة و النّشر و التّوزيع ، دمشق (سوريا) ، 2000م ، ص 133.
- 6_ حنّا مينة : الرّبيع و الخريف . ط4، دار الآداب ، بيروت (لبنان) ، 1998م ، ص 35.
- 7_ إلياس خوري : تجربة البحث عن أفق ، مقدّمة لدراسة الرواية العربيّة بعد الهزيمة . منظمة التّحرير الفلسطينيّة ، بيروت (لبنان) ، 1974م ، ص 29.
- 8_ وقائع الندوة النّقديّة التّكرميّة للمبدع حنّا مينة ، اعداد و توثيق :نزبه الخوري ، هكذا قرأت حنّا مينة لسمر حمارنة ، ص 155.
- 9_ نبيل سليمان : الرواية السوريّة (1967م – 1977م) دراسة . منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق (سوريا) ، 1982م ، ص 218.
- 10_ جمال مباركي : صورة الغرب في الرواية العربيّة الحديثة ، (أطروحة أعِدّت لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث) ، إشراف : الطيّب بودريالة ، جامعة العقيد الحاج لخضر ، باتنة ، كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة ، قسم اللّغة العربيّة و آدابها، 1429 – 1430هـ/2008 – 2009م ، ص 134.
- 11_ المرجع نفسه ، ص 134.
- 12_ ماجدة حمود : إشكالية الأنا و الآخر(نماذج روائية). الكويت، مارس 2013م – ربيع الآخر 1434هـ ، ص 256.
- 13_ مفيد نجم : مفهوم العلاقة مع الغرب في روايات سورية . منتديات ستار تايمز
www.startimes.com:
- 14_ غسان السيّد : (صورة الغرب في الأدب العربي رواية "فيّاض" لخيري الذهبي نموذجاً) ، مجلّة جامعة دمشق. المجلّد 24 ، جامعة دمشق ، العدد(4/3) ، 2008م ، ص 102.
- 15_ المرجع نفسه ، ص 103.

